إنما الكأس للأسَدّ وليس للأشد

إذا كان الشيطان الرجيم أشد فرحًا بالطلاق.. فلماذا نسعده بهذا الطلاق؟!

إن تشريعات الإسلام.. حتى بعد وقوعه تجعل من الزواج الأول: القاعدة.. والطلاق استثناء..

فالمطلقة.. تعتد في بيت الزوجية.. على مرأى ومسمع ممن يطلقها ثم.. لا بأس أن تتزين له..

والعود الحميد إليه سهل ميسور.. وبكلمة واحدة.. ترجع إليه.. كأن شيئًا لم يكن!

وهكذا.. يحاول الإسلام أن يرأب الصدع.. ويصلح ما أفسد العطار.. بتهيئة الجو لهذا العود الحميد.. والذي نبل به أرحامنا: نندي به على ما أيبسته الأيام.. مع زوجة عرفتنا.. وعرفناها.

•••

ورحم الله «محمد بن سيرين»

لقد ولد له ثلاثون ولدًا.. ومن زوجة واحدة، وكان سعيدًا بهذه الصاحبة.. والتي كان الولد تقوية للعلاقة الزوجية والتي تنامت مع الأيام بهذا العدد الوفير من البنين والبنات.

لقد عنى الإسلام بكل علاقة إنسانية.. وهو على علاقة الزوجية أشد

حرصًا.. لأنها الأساس..

ومن التوجيهات العملية هنا:

أفضل الدراهم ما أنفقته على نفسك.. ثم على أهلك.

ونستطيع في ضوء هذا التوجيه أن نهز ضمير الزوج عاتبين:

لمن تكون ابتسامتك؟.. ودعابتك؟.. وأطيب وقتك؟ للزوجة طبعًا..

●●●

قد تسول لك نفسك أنها غير جديرة بحبك؟

لماذا؟ (لعيب في الخُلق أو الخلقْ مما لا يعد ذنبًا لهن لأن أمره ليس في أيديهن.

فاصبر.. ولا تتعجل في اتخاذ قرار الطلاق.. فقد يكون في بقاء الزوجة خير.. بل خير كثير.. وأعلى الخير: [الأولاد النجباء].

فرب زوجة يملكها زوجها. ويكرهها.. ثم يجيئه منها ما تقر به عينه من الأولاد النجباء.. فيعلو قدرها عندها بذلك.

نعم الإله على العباد كثيرة.. وأجلهن نجابة الأولاد:

ومنها: أن يصلح حالها بصبره.. وحسن معاشرته.. فتكون أعظم أسباب هناءته.. بانتظام معيشته. وحسن خدمته.. لا سيما إذا أصيب بالأمراض والفقر والعوز.

فكثيرًا ما يكره الرجل إمرأته لبطره بصحته وغناه.. بإعتقاده أنه قادر

على أن على أن يتمتع بخير منها وأجمل].

يفـعل هذا.. ناسـيًا أن الصـواب الأسَـدَّ لا في الأشد! وأن للأمـور بغتات.. وعليه أن يكون منها على حذر.

[ومن الأدلة على أن الإنسان مـصرّف مغلوب.. ومـدبر أن يتبلد رأيه في بعض الخطوب. ويعمى عليه الصواب المطلق].

•••

[إن الإسلام ينظر إلى البيت بوصفـه سكنًا وأمنًا وسلامًا.. وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنسًا.. ويقيم هذه الآخيرة على الاختـيار المطلق.. كـي تقوم على التـجاوب والتـعاطف والتـحاب.. هو الإسلام ذاته الذي يـقول للأزواج «فإن كرهتـموهن فعسى أن تكرهوا شـيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا».. كي يستأني بعقدة الزوجية.. فلا تقصم لأول نزوة.

وكي يحفظ لهـذه المؤسسة الإنسـانية الكبرى جديـتها.. فلا يجـعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة.. وحماقة الميل الطائر هنا وهناك.

.. إن في الحيـاة من المروءة والنبل والتجمل والاحـتمال ما هو أكـبر وأعظم من هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط ذليل]

•••

وفي مجالس الصلح.. كنت أنصح الزوج الفائر الثائر:

[فرأيتُ أنه لا يقبـل النصيحة.. وأن نَفَسِي الحـارة لا تؤثر في حديده البارد]!

وكنت أقول ما قاله الحكماء:

[بلغ ما عليك فإن لم يقبلوا.. فما عليك].

[قل كل ما تعرفه من النصيحة والموعظة.. ولو عرفت أنهم لا يسمعون لك.

فقد ترى غداً أن العنيد قد وقع برجليه في القيد ثم يضرب كفًا بكف قائلاً:

وا أسفاه.. لم أسمع حديث العالم].

•••

ومن حديث العالم قوله:

[يجب على الرجل الذي يكره زوجته أن يتذكر أنه لا يخلو من عيب تصبر إمرأته عليه في الحال غيرما وطنت نفسها عليه في الاستقبال].

وكلا الزوجين محتاج إلى مودة الآخر..

فإن نفد رصيد المودة.. تقدمت الرحمة تنشر ظلها... فإذا الصبر ضياء كاشف.. واصل بالأسرة كلها إلى بر الأمان..

ليس في ذلك البيت فقط وإنما في كل شئ يبدو لنا مكروهًا قد يعقبه خير كثير ولذلك قال عز وجل..

[وعسى أن تكرهوا شيئًا] ولم يقل وعسى أن تكرهوا زوجة.

•••

ويبقى أن يدرك الزوج.. الأسيان الغضبان.. أن الشمل اليوم

جميع.. وأن الزوجة.. والذرية.. بين يـديك الآن. فإن تفرق هذا الشمل الجميع.. بالقرار الوجيع.. وإذا كانت رجولتك تسول لك الانتقام.. فتذكر ما قاله البصراء محذرين:

[إن الشجرة التي تنفض ثمارها في فصل الربيع لا جرم أن تبقى جرداء في فصل الشتاء].

من متعة المادة ... إلى نعيم المودة

كان على «البركان» أن يدرك: أن الأعـشاب من حوله يمكن أن يقضي عليها بزفيره فقط..

وإذن.. فلا داعي للحمم اللاهبـة الهائلة؟! لا داعي لأن تكون طويل اللســان.. قاتل الكلمـات.. مادام في إمـكانك أن تنبه الغـافل الذاهل.. بالكلمة الحانية!

●●●

قلت للزوجـة التي جاءت من أقـصى المدينة تسعى بـاكية.. تـعرض مشكلتها.

لقد رأت زوجـها.. وبعينى رأسهـا.. رأته يترك اللحم الطيب.. ثم يُؤثر عليه ذلك اللحم النيئ؟!

لقد انتـصر القبح على الجـمال.. وصار الأمـر فوق الاحتمـال، وقد أفتاها الفاقهون.. أن تعتزله مع أولادها.. فلا عيش معه من بعد فعلته التي فعل!!

●●●

وقلت لها:

إذا كان زوجك يـنطح من عمره«الخـمسين».. وإذا لم يصـدر منه من قبل ما يشين.. ثم إذا كانت رفيقته فرضت عليه فرضًا ولم يسع هو إليها..

إذا كان «الأمر كذلك: فهو غير محترف..»

لقد فـرضت عليه المعركـة فرضًا.. وكـان ذلك.. ذنبه الأول.. وإذا كان الخـالق سبـحانه وتعـالى لا يعذب مـخلوقه بالذنب الأول.. فـأحرى بالمخلوق أن يعفو..

إن الطلاق لن يكون هو الحل.. ما دامت هناك حلول أخرى..
ومن هذه الحلول:

أنه إذا تسـرب الود.. فقد بـقيت الرحمـة التي يجـبر الله بها الـكسر فارحميه.. فلعلك بالرحمة أن تنقذيه:

[إن المعروف. والجـميل. والحـسنى. يجب أن تسـود جو هذه الحـياة سواء اتصلت حبالها. أو انفصمت عراها.

ولا يجـوز أن تكون نية الإعنات والإيـذاء عنصرًا من عناصـرها، ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة في حال الانفصال.. إلا عنصر أعلى من ملابسات الحياة الأرضـية.. عنصر يرفع النفوس عن الإحن والضغن.. ويوسع من آفاق الحياة ويمدها وراء الحاضر الواقع الصغير هو :

عنصر الإيمان بالله واليوم الآخر].

●●●

فلنطو هذه الصفحة من عمـرنا.. مع ضرورة الحذر والمتابعة على حد قول الشاعر:

ينام بإحدى مقتليه.. ويتقى

بأخرى المنايا: فهو يقظان نائم

ولقد تحققت النبوءة.. وصحا النائم.. صحا الزوج العائد العائذ بالله تعالى مما حدث.. مدركًا إلى أي حد كان الفارق هائلاً بين: متعة المادة.. ونعيم المودة!

●●●

ولم يكن الزوج هو الفائز وحده بنعيم المودة.. ولكن الزوجة والأولاد ... كذلك... والدرس الأكبر هنا هو:

أن في استطاعة الزوجة أن تتجاوز لحظات الخطر بمزيد من الاصطبار.. يطلع به النهار..

ذلك بأن الحياة الزوجية لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة.. والمهم ألا نستكين لمفاجآتها.. وأن نجعل من الحِلم ركوبًا إلى حياة جديدة سعيدة.

وإذا كان هناك من يستسلم لليأس: يقف على أنقاض عمره: ينصت في الليل إلى دقات قلبه.. ويسترق السمع إلى رئتيه.. يقيس المسافة بين غرفة نومه.. وقبره.. إذا كان هناك من ينظر إلى بيته.. لا من ثقب الباب.. وإنما من قلب مثقوب.

إذا كان هناك من يفعل ذلك.. فإنهم مدعون إلى عود حميد إلى تاريخنا المجيد.. ليروا من مواقفه شاهد صدق على ما نقول:

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يؤدبون نساءهم.. ويضربونهن:

هذا الزبير بن العوام ـ حواري رسول الله ﷺ وابن عمته ـ وثب على امرأته أسماء بنت أبي بكر وهي أفضل نساء زمانها. فضربها في شئ عتب عليها فيه ضربًا مبرحًا.. حتى كسر يدها.

وهذا كـعب بن مـالك الأنصاري. . عـتب على امـرأته وكـانت من المهاجرات. . فضربها. . حتى حال بنوها بينه وبينها. . فقال:

فلولا بنوها حولها لخبطتها.

قال الراوي :

فسرّى عن موسى الغضب! وطابت نفسه ودعا بالطعام. فأكلنا. وكأن شيئًا لم يكن!

●●●

وقد كـان هناك حكماء رحـماء. . يدركـون دقة العـلاقة الزوجـية. . وقدسيتها. . فوصلوها. . بعدما قطعوها.

ذكروا أن عبـد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ كانت عنـده عائلة بنت زيد بن عمرو بن نفيل. . فأحبها حبًا شديدًا. .

ويبـدو أن الصديق خـاف عليـه من فتـنة الحب الذي يوشك أن يكون هيامًا. . فأمره بتطليقها.

ولأنه يريد الإصلاح و لا يريدا لتشقى. . فقـد أمره أن يطلقها تطليقة واحدة. . ففعل. . ثم ندم عبد الرحمن ندمًا عبر عنه شعرًا فقال:

فلم أر مثلى طلق اليـــوم مثلها

ولا مثلها في غير جـرم تطلق

لها خلق سهل وحسن ومنصب

وخلق سوى ما يعاب ومنطق

أعــانك: كل يــــــوم وليـــلة

إليك بما تخفى القلوب معـــلق

أعاتك: ما أنساك. . ماذر شارق

وما لاح نجم في السماء محلق

فلما سمع أبو بكر ذلك رق له وأمره بمراجعتها!!

حتى لا تذهب أمانينا.. وبأيدينا

يقول الحق سبحانه وتعالى:
﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(١). [النور: ١٢].

●●●

تمهيد:

كان للقرآن حضور عميق في وجدان المسلم: يتلقى توجيهًا بالتسليم: فلا يقول إلا حقًا.. ولا يصنع إلا عدلاً.. فإذا كان المسلم زوجًا.. كان على غاية ما يكون الالتزام بما يشير إليه القرآن من أحكام:

وقد سمع واحد عن زوجته شرًا.. فاستحضر هذه الآية الكريمة في وعيه.. وعلى ضوئها رد فرية من أبلغه قائلاً:

أنا مؤمن.. ولأنني مؤمن.. لا أفعل هذا الشر وزوجتي كذلك: مؤمنة.. ولذلك فهي بحكم إيمانها لا يصدر عنها ذلك الشر.. وإذن فكل ما يبلغني عنها.. كذب!

وانتهت المؤامرة بتصدي هذا الزوج الواعي لمن أراد به وبأهله شرًا!!

●●●

(١) النور: ١٢.

لقد كـان قلب الزوج هنا مثل قـارورة الزجاج ترتطم به الشـائعات ثم ترتد حسيرة دون أن تؤثر فيه . .

ولم يشأ أن يكون قلبه مثل «الاسفنـجة» التي تمتص ما يرد إليها . . ثم تختزنه ! !

إن شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا يريدون بذلك حل عقدة النكاح بما يوسوسون به من همزات وشائعات . .

ونحن مـحـتـاجـون إلى زوج من هذا الطراز . . الحـافظين للود . . الرافضين للوشاية فارين بهذه الثقة من عقبى سوء الظن . . وهي استحالة أن تعود الزجاجة بعد الكسر إلى سابق عهدها :

ولست براجع ما فات مني

بلهف . رلا بليت . ولا لو أني

•••

إن هذا الميثـاق الغليظ أقوى من أن تنحل عقـدته بكلمة طائشة عـابثة ماكرة . .

ذلك بأن عقدة النكاح ولدت . . لتبـقى . . ولا يستطيع ـ حتى الموت ـ أن يحلها .

•••

وإذا كان الزوجان مكلفين . . بالتـصدي لكل محاولة تستـهدف سلامة بيتهما . . وذات بينهما . . فلا ينبغي أن يصير ذلك «شماعة» نعلق عليها كل أخطائنا . . اللاتي صنعناها بأيدينا . . ذلك بأن المشكلات قد تهب أعاصيرها

من داخل البيت نفسه.. وباستسلام الزوجين لموجة الترف.. زهدًا في حياة البســاطة، وما يتـرتب على ذلك من آثار تنعكس على كل مـا في البيت.. ومن فيه رجومًا وغيومًا..

بمعنى أننا ـ أحـيانًا على الأقـل ـ لا يجمل بنا أن نبـحث عن أسبـاب الطلاق خارج ذواتنا.. فقد نكون نحن الذين مهـدنا لها السبيل.. حتى لم يعد للنجاة منها سبيل!

●●●

وهذه واحدة من تجارب الحياة.. نقدمها تبصرة وذكرى:

يحكي واحد من الأزواج تجربته.. فيقول:

بعـد زواجي في الخامـسة والعشـرين من عـمري.. عشت وزوجـتي أجمل سنوات عـمري كانت أحـلامنا ـ زوجتي وأنا ـ صغـيرة، لا تزيد عن شراء جهاز تليفزيون. ثلاجة. الجلوس في العـصاري في حديقة عامة ومعنا قليل من الغذاء، ذات مرة حلمنا أن نمتلك سيارة صغيرة مستعملة، فضحكنا حتى الثمـالة من هذا الحليم المستحـيل، وخلال عشر سنوات زواج سـعيد، رزقنا بثلاثة أولاد، كانوا قـرة عيني، ومصدر سعادتي. وجـاءني عقد عمل في إحـدى الدول العربيـة، وأسـعدني هذا العـقد، وقـلت المقولة المصـرية الخالدة: هذا رزق أولادي!!

كانت شروط العقد أن أسافر وحدي دون أسرتي. وأحصل على إجازة سنوية لا تزيد على ثلاثة أسـابيع في العام، وفكرت أن أقـضي عدة سنوات قليلة أعود بعدها إلى أسـرتي ومعي سيارة وقليل أو كثـير من المال في أحد البنوك. وتركت زوجتي الجميلة وأجمل أطفال في الدنيا.

مـعذرة. . لقـد جرفنـي معـه تيار الطمع، فـبـدلاً من تلك السنوات القليلة، قضيت بقـية عمري أسبح في هذا التيـار المدمر، وتركني العمل أو تركته وعدت للإقـامة الدائمة، كهل في الستين، أملك مالاً وفـيرًا، وأحتاج لرعاية كثيرة. فماذا حدث؟

وجدت نفسي غريبًا في بيـتي، لأولادي عالمهم الخاص الذي لا يجوز لي أن أقتـحمه. لزوجتي صـديقات وأسلوب جديد في الحـياة لا مكان لي فيه.

وجدت ـ يا سيدي ـ الصمت هو حوارنا.

وجـدت في عـيون أسـرتي السـعـادة عندمـا أقضي بضـعـة أيام في الإسكندرية وحدي.

أرى الغـضب في عـيـون أسرتـي إذا جاء لي صـديق، وأحـسـست بالوحدة، والغربة، في بيتي وداخل أسرتي.

ومع مرور الأيام، ومع شدة ضعف صـحتي، لم يعد لي الحق أن أرد على تليفون، أن أدعو صديقًا لبـيتي، أن أحاور أفراد أسرتي أو أعرف عنهم شيئًا. وأعـيش بقية أيامي ـ في هذه الوحدة القاتلة والغربة الكئـيبة وحدي ـ أجتر ذكريات عشر سنوات، قضيتـها في سعادة غامرة أنا وزوجتي وأطفالي الثلاثة، تحت الأشجـار وفي الحدائق العامة، ومعنا قليل من الغـذاء، وكثير من الحب، وأحلام صغيرة!!!

أما بعد:

فقد كان الحب الكبير في بيت الفلاحـة البسيطة. . التي خلا بيتها من كل جهاز حديث. . ولكنه حافل بأطيب الحديث. .

لقد كانت هذه «الفلاحة» عاملة

تعمل مع زوجها.. وهذا شرفها

وفي أرضها.. وهذا عزها

منتسبة إلى زوجها.. وهذا هو انتماؤها ووفاؤها. ثم هو العمل «الواجب» وليس هو العمل «الحق»

•••

إنها عنقود من القيم تسعد به البيوت.. والحب فيها لا يموت!

إصلاح ذات البين وسعادة الزوجين

•••

خمس وعشرون ألف رسالة . . تصل يوميًا إلى ممثلة الإغراء ومع ذلك تعلن: أنها تحس بالوحدة القاتلة:

وتصوروا هذا العـدد الضخم الذي يملأ حياتهـا . . لا يطرد الإحساس بالاغتراب وحتى مع وفرة الأحباب!

ذلك بأن المعجبين هنا فارغون . . يعيـشون مثلها خواء روحيًا . . أرادوا أن يملأوه بالتملق . . مع أنه لا يمتلئ إلا باليـقين . . ولا يقين هناك . . وفاقد الشئ لا يعطيه . .

إنها مدرسة الفتنة بالحياة الدنيـا تقيم حساباتها على أساس خاطئ هو: أنه لا حياة بعـد هذه الحياة . . فذاقوا وبال أمرهم في الدنيـا قبل أن يذوقوه هناك . .

•••

إذن . . فوفرة النعيم . . لم تجلب على أهلهـا إلا العذاب القيم . . بينما كانـت المرأة الراضيـة القانعـة . . أكبر سـعادة . . وأقـدر على اتخاذ الـقرار السليم . . لتـصبح في رضاها، وفي سكناها بيـتًا خـاليًا من حبـة القمح . . وحـبة الـدواء . . لتصـبح أغنى بهـذا الرضـا وهذا الاسـتعـلاء حـتى على الضرورات . . .

ثم لتكون زوجـة صالحـة مـصلحة . . حـتى في ظل رجل واحـد هو

زوجها.. الذي لا يملك نقيرًا ولا قطميرًا.

شكَتْ «أم الدرداء» إلى زوجها «أبي الدرداء» شكت إليه الحاجة إلى الدقيق يومًا.. لم تكن من دأبها أن تشكو حتى من فراغ بيتها من ضرورياته المعيشية.. ولكنها تجأر اليوم بالشكوى بعد أن اختفى من البيت رغيف العيش...

ويجيبها أبو الدرداء قائلاً:

اصبري.. فإن أمامنا عقبة كئوداً.. لا يجوزها إلا أخف الناس حملاً من متاع الدنيا!!

●●●

وتنحسر الرغبة من قلب الزوجة الراضية.. ويكفيها أن يبقى «الرجل» أن يبقى «الزوج».. ففي وجوده.. لا يكون هناك في الدنيا ما تبكي عليه!

●●●

إن حسابات الزوجين هنا قائمة على أساس سليم وهو: أن هناك دارًا هي الحيوان.. فيجب أن نستعد لأهوالها.. بالتخفف من أثقال الدنيا.

ومهما فاتنا من مناعم هذه الحياة الدنيا.. فخطبه هيِّن ما دامت هناك مودة تربط على القلبين. فالمهم هو إصلاح ذات البين.

إن ملائكة السماء لتتمنى أحيانًا أن تتنزل من سماواتها العلا.. لتكون من أهل الأرض.. لعظم ما تراه من ثواب الأعمال فيها.. وفي مقدمتها.. إصلاح ذات البين!!

وأجمل بهذا الإصلاح إذا كان بين زوجين.

وإذا كـانت الأشـياء تتـميـز بأضدادها.. فـإننا نقـابل هذه الصـورة المشرقة.. بصورة أخـرى مظلمة.. تظهر بكدرتها حسن سابقـتها.. لتعلم الزوجـات إلى أي حـد كـان الوفـاق.. خـيـر مـا نطلب من أرازق. وفي غيابه.. فإن الحياة لا تطاق!

سألت الزوجة زوجها نقودًا. فقال لها غاضبًا:

نقود.. نقود؟!

النقـود هي كل شئ تطلبينه.. لـيتني أسـتطيع أن أعطيك عقـلا بدلاً منها!

فقالت آسفة كاسفة البال:

إنني أطلب ما أعتقد أنه موجود عندك!!

ثم قامت الدنيا.. ولم تقعد.. إلا بالطلاق!!

•••

إن الزوجة هنا تطلب ما لا تسمح به مـيزانية البيت.. وهي تعلم ذلك فأهل مكة أدرى بشعابها..

فكان لابد أن يصفعـها الزوج بهذا الرد القاسي.. المنتـهى بتبادل تهم هما منهـا براء.. ثم يكون الفـراق.. بسـبب مـا أحـدث الاتهـام من «جروح».. لا.. بل من «جراح» ذلك بأن الجروح متـعددة.. ومتقطعة.. أما الجراح.. فهي ممتدة.. بسبب هذه «الألِف» ذات الصدى الصوتي المديد!

إن هناك في شخصية الزوج مناطـق محظورة: ممنوع الإقتراب منها.. أو تصـــويرها.. كـبـعـض المناطق العـــسكرية.. ولـكن بعض الأزواج

يقتحمونها. . فيقع المحظور. . وقـد يحاول الاعتذار. . ولكنه الاعتراف بعد فوات الأوان:

إنه لا يرد ما فات ولا يحيي الموات!

•••

وإذا كان من مقررات الشريعة أن «الجُعل»[1]. في حجره كاد أن يعذب بذنب ابـن آدم. . فكيف إذا كـان الذنب في حـق الرفـيـق. . حق الزوج الوثيق. المعين على وعثاء الطريق؟

إنه أثقل حملاً. . وأعظم مسئولية.

•••

لقد جـاءت الزوجة الوفية الأبيـة تشكو إلى الرسول ﷺ بثَّها وحـزنها قائلة:

ولكني أكره الكفر في الإسلام!

لقد اعتبرت مخالفة زوجـها كفرًا. . وهكذا وفي أحرج لحظات حياتها لا تنسى أن تكون وفيَـة أبية. . تعلم بنات زوجها فن الوفـاء في زمان ضاع فيه الوفاء

•••

ولقد كانـت بهذا الوفاء وهذا الولاء أسعـد من أختها الحضـرية. بهذا القلب الوسـيع الذي يُعلِّم الزوجة أن توسـع من قلبهـا لتحـترم رفـيقـها. احترامه إن فاتها حبه. . ثم وبيدها تهد هد طفله قائلة:

أحبك. . والرحمن... حب قريش لعثمان!

(١) الجُعل: الحرباء.

أزواج تحت مستوى النظر

كان الموظف الكبير يتـأمل وجه الموظف الأكبر فيقرأ في مـلامحه ماذا يريد . . فكان ذلك الرجل الذكي الألمعي . . والذي عناه الشاعر بقوله :

الألمعي : الذي يظن بك الظن . . كأن قد رأى وقد سمعا!

●●●

وبهذه الألمعـية . . تجاوز كثـيراً من لحظات الصدام . . وعاش مـعه في وئام . .

●●●

قالت نفسي:

ولماذا لا يكون الزوج . . ولا تكون الزوجة كـذلك أن يتحرى كـلاهما رغبة صاحـبة . . ليسارع في رضاه . . لماذا لا نحاول الاحتـفاظ بأعصابنا . . حتى لا تحترق في أتون الخلافات الزوجية؟!

أليست أعصابنا أغلى ثمنًا . . من كل ما نتقاتل عليه من أمور البيت؟!

●●●

إذا كان ولا بد من خلاف . . فـليكن الخلاف علي قضية تـستأهل هذا الخلاف . . أمـا العبث بهذا الميـثاق الغليظ . . ومحـاولة نقضه من بعـد قوة فذلك تلاعب بالعروة الوثقى . . التي اجتمـعنا عليها . . وبكلمة الله . وعهد الله سبحانه :

كانت أم الحجـاج زوجة للمغيرة بن شـعبة ﷺ فرآها يومًـا «تخلل» أسنانها بكرة. . فقال لها: أنت طالق والله!

لئن كانت هذا من غـذاء يومك. . لقد شرهت. . وإن كان من عـشاء أمسك. . لقد أنتنت!

فقالت:

لا يبعد الله غيرك! . . والله ما هو إلا من السواك!

وانتهت المعركة بالطلاق!

●●●

لقد كان على الزوجة هنا أن تعي نصيحة الأم لابنتها:

لا يشم منك إلا أطيب ريح. .

ولا تقع عينه منك على قبيح!

لكنها لم تع النصيـحة. . فحدث المحظور. . بعد مـا أرت زوجها من نفسها ما كرهه!

ويتحـمل الزوج هنا مع زوجته عبء هذه النهـاية الأسيفـة، وكان من الممكن أن يتجاوزها بحكمته. . وحنكته. .

●●●

ولقد تكون الزوجة شابة. . بينما يكون بعلها شيخًا. . يتخذ من العصا رِجْلاً ثالثة؟!

ولكنها قبلته إبتداء. . وبلا إكراه. .

إلا أنها رأت فـتية أهجن فيـها الشجن فـقالت على مسـمع منه مالي وللشيوخ . . الناهضين كالفروخ؟!

فقال:

ثكلتك أمك:

تجوع الحرة ولا تأكل بثديها . .

أما وأبيك: لرب غـارة شهدتهـا . وخيل وزعتـها . وسبـية أردفتـها . وخمرة شربتها:

إلحقي بأهلك . . فأنت طالق!

ويبدو أن قرار الطلاق كان حـازمًا لا رجعة فيه . . وذلك مـا يشير إليه قوله مؤكدًا هذا العز مدافعًا عن شيخوخته:

تهزأت أن رأتني لابسًا كبرًا

وغاية الناس بين الموت والكبرَ

فإن يكن قد علا رأس وغيرَّه

صرف الزمان وتغيير من الشَّعر

فقد أروح للذات الفتى جذلاً

وقد أصير بـــــــها عينًا من البقـــــر

عني إليك . . فإني لا يوافقني

عور الكلام ولا شـــرب على الكـــــدر

وهكذا.. تنفصم العروة الوثقى أمام هجمة الشهوة العارمة، وكان الظن أن تفي الزوجة الشابة بعهدها.. لكنها لم تفعل فكان ما كان.

•••

بل إن الميثاق الغليظ قد يخف في تقدير ناس ينقضونه هكذا وبلا سبب:

بينما كان ثلاثة رفاق في موطن يقال له.. «بطياثا» من أمصار «دجلة».

فقال أحدهم:

نلنا لذيذ العيش في «بطياثا».

فقال الثاني:

لما حثثنا أقداحًا ثلاثًا

فقال الأخير:

وامرأتي طالق ثلاثًا!

•••

وبهذه البساطة.. يتلاعب المتلاعبون بالميثاق.. الغليظ وقد يندمون.. ولكن بعد فوات الأوان!

ولئن صح ذلك.. أيام الجاهلية الأولى.. فإن الجاهلي منطقي مع نفسه.. أما المسلم.. فقد كان الظن به أنه يرتفع به إسلامه فوق هذه النزوة الطارئة.

أجل.. في الجاهلية [كانت المرأة ألعوبة في يد الرجل: يضارها

بالطلاق ما شاء أن يضارها. فكان ذلك مما أصلحه الإسلام من أمور الاجتماع].

الإسلام الذي غالى بعقد النكاح.. وبقيمة المرأة.. التي وإن وصفها بأنها «تكفر العشير» فإن ذلك لا يعني نقصها.. ولا رفضها..

وإنما هو التحذير من سوء المصير.. لو أنها لم تحسن تبعلها لرجلها..

إن الإسلام لا ينفض يديه منها.. كما وأنه لا يرفض بقاءها مهما بدر منها.. ألا وإن غياب الزوجة المشاكسة لمصيبة كبرى.. فكيف يكون لو كانت طيعة خاشعة؟!